

الرحلة العلمية وتأثيرها على الوضع الثقافي في الجزائر في عهد الدايات "رحلة الحسين الورثاني أنموذجا"



أ/ عائشة دباح
المدرسة العليا للأساتذة - بوزريعة

الملخص:

عاشت الجزائر في الفترة الأخيرة من حكم العثمانيين (حكم الدايات) ظروفًا استثنائية ، دفعت بكثير من العلماء إلى الاتجاه شرقًا أو غربًا في سبيل تحصيل العلم أو في سبيل بذله ، وكثيرًا ما كان هذا الانتقال أو السفر سببًا في تأليف كتب أو مؤلفات تعنى بوصف ما شاهدوه أو ما روي لهم أو ما لقوه من علماء أو شخصيات أو أعيان ، وهو ما يعرف بفن الرحلة الذي عرف ازدهارا كبيرا في هذه المرحلة من تاريخ الجزائر ، و مما لا شك فيه أن تأثير الرحلة العلمية على الوضع الثقافي في الجزائر كان بارزا وواضحا وهذا عن طريق تبادل العلم بين العلماء الجزائريين ونظرائهم من المشرق أو من المغرب ، ويأتي هذا المقال كمحاولة لتسليط الضوء على هذا النوع من الرحلة من خلال الرحلة التي قام بها الشيخ الحسين الورثاني الموسومة بـ «نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار» والتي تعد نموذجا من هذا الفن ومصدرا تاريخيا لا يستغنى عنه في دراسة هذه المرحلة من التاريخ سواء بالنسبة للجزائر أو باقي الوطن العربي .

Résumé

Durant la période des DEYS , (1830-1671) l'Algérie a connu des conditions particulières, ce qui a poussé les différents savants algériens a prendre le départ vers l'est) moyen orient , (ou vers l'ouest) le Maroc (dans des buts scientifiques ; soit pour apprendre et avoir des IDJAZA , soit pour enseigner.

Ces voyages ont été souvent accompagnés par l'écriture de différents ouvrages qui ont pour but , la description de leurs observations et leurs témoignages ,sur les différents événements dont ils ont vécu ou observé, ainsi que leurs rencontres avec les savants des régions visitées , c'est ce qu'on appelle l'art du « RIHLA » « voyage scientifique . (ce dernier a connu un progrès durant cette période ,ce qui a un impact bien visible selon de différents historiens sur le niveau intellectuel des habitants.

Cet article vient de faire le point sur cet art a travers un ouvrage qui est celui de HUSSEIN EL WARTHILANI » NUZHAT ELANDHAR FI FADHL ILM ETTARIKH WALAKHBAR , « qui est considéré par de différents historiens comme source indispensable a la compréhension des différents événements en Algérie et autres pays arabes durant cette période.

مقدمة :

سواحل الجزائر على حساب نشر العلم ودعم العلماء².

غير أن هذا لا يعني عدم وجود حركة علمية وثقافية بالبلاد بل على العكس فقد حافظت معظم حواضر الجزائر على حركيتها العلمية والتثقيفية التي عرفت بها حتى قبل دخول العثمانيين إليها كقسنطينة وبجاية والجزائر ومازونة وتلمسان ، فظهر فقهاء وأدباء وعلماء في مختلف الفنون كان لهم فضل كبير في نشر العلم ورفع المستوى الثقافي بما كتبه وألفوه في شتى العلوم والفنون كأبي راس الناصري ، ابن عمار الجزائري ، الحسين الورتلاني ، عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري وابن الشاهد وغيرهم .

غير أن المتصفح للآثار والمؤلفات الخاصة بهذه الفترة يلاحظ كثرة ما يسمى بأدب الرحلة ولعل أهم سبب في ذلك هو الرحلات التي كان يقوم بها هؤلاء العلماء والتي كثيرا ما كانوا يعودون منها بكنوز علمية ثمينة في وصف ما رأوه وذكر ما روي لهم وما نقلوه من أحداث ووقائع بالأمكن التي قصدوها أو زاروها أو مروا بها ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر

عرفت الجزائر أواخر العهد العثماني وخاصة في عهد الدايات (-1671 1830م) أحداثا مهمة وظروفا خاصة ، وبالأخص على المستويين السياسي والاقتصادي ، فقد عرفت البلاد اضطرابا كبيرا بسبب الضعف السياسي والاقتصادي في هذه المرحلة من تاريخها ، وهذا بسبب النقص في الموارد البحرية واستيلاء اليهود على التجارة وسيطرة الأوروبيين على طرق المواصلات وتدخلهم في الشؤون الداخلية للبلاد كما تعكسه توصيات مؤتمر فيينا ، وقبل ذلك الغارات الأجنبية من أوروبا المسيحية ؛ «أما على الصعيد الداخلي فكان الفساد والتعفن الداخلي قد بلغ القمة بسبب الرشوة والمؤامرات على السلطة والتخلف العقلي بالإضافة إلى مكائد العلماء ضد بعضهم»¹.

وقد كان لهذه الأسباب والظروف انعكاسات على الوضع الثقافي والعلمي في أوساط السكان ، ومن بين ذلك تراجع الحركة العلمية وتدهور التعليم في تلك المرحلة خاصة في ظل اهتمام الأتراك العثمانيين بحركة الجهاد البحري وتركيزهم على صد هجمات الأوروبيين (الكفار) المتتالية على

العلم والتنقيب عن كل جديد والرغبة الجامحة للاستكشاف في عوالم أخرى غير البلد الذي ولد فيه وخارج الديار التي نشأ بين جدرانها، أما بالنسبة للمؤرخ فلا شك أن الرحلة تعتبر من صلب نشاطاته ومن وسائله الأساسية لتدوين وضبط وتقييد الوقائع والأحداث التي عاصرها من جهة ، أو في سبيل البحث عن مصادره وشواهده ومخطوطاته وتنقيحها والجمع بينها واختيار أحسنها أو الصالح منها .

يقول المؤرخ الجزائري : أبو القاسم سعد الله : « والسفر بالنسبة لي كالماء والهواء، ولو انقضت علي سنة دون أن أتنفس هواء بلد آخر لأحسست بالإنخناق حتى في وطني ، لا لأنه يفتقد نقاوة الهواء وعدوبة الماء ولكن لأن تغيير الهواء في حد ذاته يصقل الذاكرة ويجدد العاطفة ويبحث على الفضول الذي هو أساس المعرفة ويحقق خمس فوائد كان الشاعر العربي قد اختصرها في قوله :

تفرج هم واكتساب معيشة

وعلم وآداب وصحبة ماجد »

ثم يضيف : « وأهواء العالم كميابه لها أوزان وأثقال مختلفة ، ومن ثمة مفعول خاص ، فالهواء الذي امتلأت به رثنا زرياب غير الهواء الذي تنفسه بيتهوفن ، والهواء الذي عاش به ابن رشد غير الهواء الذي استنشقه أينشتاين، هكذا دواليك»⁴.

أغراضها عند الرحالة الجزائريين في عهد الدلايات :

ازدهرت الرحلات في الجزائر خاصة في القرن الثامن عشر ويرجع ذلك إلى عدة أسباب

نذكر كتاب أبي راس الناصر : «عجائب الأسفار ولطائف الأخبار » ، وكتاب الورثاني «نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار» ، ورحلة عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري: لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال ، ورحلة أبي العباس أحمد بن عمار : « نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب» ،....

وهنا يحق للناقد أن يتساءل عن الأهمية العلمية والتاريخية وكذا الدور الذي لعبته هذه الرحلات العلمية أو الآثار والمؤلفات التي عنيت بوصفها وذكر ما كان فيها في نشر العلم والرفع من المستوى الثقافي والتعليمي للسكان في الجزائر في هذه المرحلة المحددة من تاريخها .

مفهوم الرحلة العلمية :

الرحلة من رحل عن المكان : تركه ، ورحل إلى المكان : انتقل إليه ، ورحل البلاد : طافها وتنقل فيها ،

وتعرف بكونها «حركة ومخالطة للناس والأقوام وتعرف على المناطق ووصف الثقافات الإنسانية ورصد بعض جوانب حياة الناس اليومية في مجتمع ما وفي زمن معين وبواسطتها يحصل الرحالة على مادة ثرية من المعلومات المستمدة من الملاحظة المباشرة والمعاينة الشخصية عن أحوال البلدان السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، كطبائع الناس ومعالم حضارتهم وخصوصياتهم ، وهي تمثل مظهرًا من المظاهر الحضارية الواضحة في مختلف العصور الإسلامية»³.

لا شك أن مما يدفع إلى الرحلة البحث عن المتعة والترويح عن النفس بالنسبة لعموم الناس ، أما بالنسبة للعالم أو لطالب العلم فإن أهم ما يدفعه إلى الرحلة وأحيانًا إلى الهجرة فهو الشغف بطلب

أهمها :

- الاستقرار السياسي بحيث ساعد على حرية التنقل دون الخوف من مخاطر الطريق .

- ازدهار الحياة العلمية والأدبية ونشاط حركة التأليف حيث أن حكام هذه الفترة شجعوا هذا المجال ، ومن أبرزهم الداوي محمد بكداش ، والداوي محمد بن عثمان باشا ، وصالح باي ، ومحمد الكبير باي وهران .

- تعلق الجزائريين ببلاد المشرق عامة والحجاز خاصة لزيارة الأماكن المقدسة بدافع ديني لأداء فريضة الحج ولطلب العلم بحيث كان المشرق العربي مركزا لنشر العلوم وتلقيها⁵.

ولا شك أن هنالك أغراضا عدة وأهدافا جمة تدفع بالعالم أو الأديب أو المؤرخ إلى مغادرة الأرض التي نشأ فيها إلى مناطق أخرى هو غريب عنها وعن أهلها ، وهي أغراض تختلف عن أغراض الرحالة الأوروبيين في نفس الفترة مثلا كحب المغامرة والاستكشاف ، أو التوسع والاستعمار وبسط النفوذ ، أو نشر المسيحية و«التبشير»⁶، بل كان للرحالة الجزائريين خصوصيتهم من حيث الأغراض والدوافع ويمكن حصر هذه الأغراض بشكل أساسي في مايلي :

- الغرض العلمي .

- الغرض الديني .

الأهداف العلمية :

يتفاعل العالم مع محيطه تأثيرا وتأثرا ، تعليما وتعلما ، أخذا وعطاء ، فهو في مجالس يتصدر مجلس العلم تعليما وشرحا ، نصحا وفتوى ، تخريجا وإجازة ؛ وفي مجالس أخرى متعلما على يد من هو أعلى منه درجة وأرفع منه مرتبة

، دافعه في ذلك طلب العلم استجابة لأمر الله عز وجل في كتابه : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً ﴾ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾⁷؛ فطلب العلم بالنسبة لهم عمل صالح يرجى ثوابه ويطلب جزيل أجره ، قال رسول الله ﷺ : « مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ » رواه الترمذي (2646) .

ولعل ما دفع بهؤلاء العلماء إلى السفر خارج الجزائر هو انعدام مراكز علمية معروفة كالأزهر الشريف بمصر ، القرويين ، الحرميين الشريفيين والزيتونة بتونس ، مما جعل الجزائريين يتحملون عناء السفر والترحال من أجل الجلوس إلى أهل العلم والأخذ عنهم وبالتالي الحصول على الإجازات العلمية⁸.

ومن العلماء الجزائريين من اختار المغرب كوجهة لهجرته لما كانوا يجدون فيه من حياة أفضل وأرحب مقارنة بالجزائر فيختارون الإقامة هناك ؛ إذ كان الجو العلمي في المغرب أفضل منه في الجزائر رغم تقلب الأحوال السياسية فيه ، وربما يعود ذلك إلى قرب المغرب من الأندلس وكثرة مراكز التعليم والعواصم العلمية ووفرة المكتبات ووجود «القرويين» وتقدير ولاية المغرب لأهل العلم وخاصة السلطان إسماعيل ومن هؤلاء عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري ومحمد ابن الكماد⁹، ومحمد بن عبد الكريم¹⁰ وغيرهم .

أما الذين رحلوا إلى بلاد المشرق معلمين ومدرسين ممن آنس في نفسه الكفاءة والقدرة على العطاء بالمشرق وإفادة للمشاركة فمن أهمهم أبو العباس أحمد المقرئ التلمساني (ت. 1631)

وبسبب اشتهار هذا النوع من أنواع الرحلة ظهر مصطلح "الرحلة الحجازية" التي يقصد بها الرحلة إلى مكة المكرمة

وهناك صنف من العلماء الجزائريين الذين

جمعوا بين الهجرة من أجل طلب العلم والحج ، وبين الجهاد في سبيل الله ومشاركة إخوانهم في صد هجمات الصليبيين ومن هؤلاء عالم يدعى ابن الترجمان علي بن محمد (ت . 1771) الذي ولد بمدينة الجزائر وبها نشأ وتعلم ، رحل إلى المشرق ودخل بلاد الروم مرارا وحظي بأرباب الدولة ثم سكن القاهرة وبعد اندلاع الحرب العثمانية الروسية اشترك في الجهاد ، ولكن انهزام الجيش العثماني جعله يقع في الأسر ، فتم نقله إلى موسكو حيث بقي يعاني في السجن حتى وفاته¹³.

أهم الرحلات في عهد الدايات :

رحلة عبد الرزاق بن حمادوش : عاش ابن حمادوش في القرن الثاني عشر الهجري ، وقد قام برحلة من مدينة الجزائر إلى كل من تطوان ومكناس وفاس ، بغرض طلب العلم والتجارة معا ، وقد وصف ابن حمادوش الحياة العلمية كما وصف الظروف السياسية والاقتصادية في المغرب في تلك الفترة ، وقد قام بتسجيل ملاحظاته وإجازاته وأحكامه في مذكراته التي جمعها في «لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والآل».

رحلة البوني : مؤلفها هو أحمد بن قاسم بن محمد ساسي البوني ، عاش في المشرق ، لا سيما بمصر والحرمين كما عاش مدة طويلة في تونس وقرأ على عدد من الأساتذة في هذه الأقطار التي زارها ، وأجاز وأجيز ، وقد سمي رحلته «الروضة الشهيبة في الرحلة الحجازية».

ويحيى الشاوي (ت. 1685)¹¹ ، غير أن أغلبهم زواج بين الإفادة والاستفادة بالمشرق أو بالمغرب¹².

الأهداف الدينية :

لعل أهم غرض للسفر يشترك فيه جميع المسلمين في جميع أقطار الأرض وعبر مختلف العصور هو السفر إلى البقاع المقدسة وزيارة بيت الله الحرام حجا أو عمرة ، باعتبار الحج أحد شعائر الإسلام وأحد أركانه الخمسة، غير أن السفر لم يكن يقتصر على مكة المكرمة فقط بل كان يتعداه إلى مناطق مقدسة أخرى كزيارة المدينة المنورة وما فيها من آثار ، وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم والصلاة في مسجده وزيارة البقيع وغيرها، وكذلك زيارة القدس الشريف والصلاة فيه ابتغاء الأجر والمثوبة .

ويمكن تلخيص الأغراض الدينية للرحلة

المغاربة إلى البقاع المقدسة في جملة من العناصر أهمها :

- تأدية شعائر الحج أو العمرة .
- مجاورة الحرم.
- زيارة بعض المآثر المقدسة .
- طلب العلمي الشرعي .

وكان الكثير منهم لا يكتفي بزيارة واحدة بل يكررها لمرات عديدة ومن هؤلاء نذكر الوثلاثي الذي حج ثلاث مرات متتالية ، أما عبد الكريم الفكون القسنطيني فكان يتولى إمارة ركب الحج بمعنى أنه كان يحج سنويا، وإذا كان بعض هؤلاء يفضل العودة إلى بلاده بمجرد إتمامه لمناسك الحج فإن بعضهم الآخر كان يقرر الاستقرار هناك ومجاورة قبر الرسول ﷺ حتى وفاته .

رحمه الله على ما أخبرني به أبي عام خمسة وعشرين من الثاني عشر (1125هـ) وتوفي على ما ذكره لي بعض تلاميذه في شهر رمضان عام ثلاثة وتسعين من القرن (1193هـ) وبعضهم قال عام أربعة وتسعين ، فعلى هذا عاش المؤلف ثمانين وستين أو تسعا وستين سنة»¹⁴ .

يذهب الورتلاني إلى أنه من أسرة شريفة ، وكان جده قد جاء من ميلة وصاهر أسرة محمد أمقران حاكم منطقة قنزات وأصبح شيخ علم معترفا له وأسس نفوذ الأسرة الروحي في المنطقة حتى أنه بعد أن توفي أقيمت له قبة باعتباره من كبار المرابطين ، وهكذا فقد اجتمع في أصول الورتلاني الدين والدنيا معا : الدين عن طريق جده ووالده الذين كانا أيضا من المرابطين ، والدنيا عن طريق أخواله أولاد أمقران الذين كانوا حكاما ورجال سيف ، وقد تزوج الورتلاني نفسه من إحدى بنات هذه الأسرة الكريمة ، وهي أسرة المسعود بن عبد الرحمن من بني عيديل ، كما كانت أسرته على صلة بعائلات قسنطينة¹⁵ .

غير أن هذا لم يمنع أن ينشأ الورتلاني نشأة فقيرة أساسها التقشف الصوفي فقد حفظ القرآن الكريم في زاوية جده ببني ورثيلان ، كما درس على يد والده وعلماء قريته ، مثل يحيى العيلاوي ، وأحمد الزروق بن أحمد البوني ، ثم شد الرحال إلى الجزائر العاصمة ، تلمسان ، مليانة ، البليدة ، المسيلة ، بسكرة طلبا للعلم¹⁶ .

كان لتكوينه في مسقط رأسه الأثر البارز على مسيرته العلمية خاصة من خلال مبادئ التصوف التي تلقاها من عائلته ومن علماء منطقته والتي بقي مرتبطا بها بقية حياته¹⁷ ، إذ ارتبط بالطريقة الشاذلية وعد من المرابطين ، حيث ظل ملتزما بحياة الزهد والتقشف ، ومتصفا بالجد والعمل

رحلة ابن عمار : كان حج ابن عمار لأول مرة سنة 1166هـ وقد مكث بالحرمين حوالي اثنا عشر سنة ، وقد تنقل بين الجزائر والمشرق عدة مرات ، كما زار تونس سنة 1195هـ ، وقد أجاز محمد خليل المرادي سنة 1205هـ ، ألف رحلته وسماها : «نحلة اللبيب في أخبار الرحلة إلى الحبيب» .

رحلة أبي راس الناصر : عرف أبو راس بتجواله الكثير سواء داخل البلاد أو خارجها ، فقد حج إلى البقاع المقدسة مرتين (سنة 1204 وسنة 1226هـ) ، وأثناء حجتيه تجول في تونس ومصر وسورية والقدس وغيرها ، كما زار المغرب الأقصى عدة مرات ، وكان في كل زيارة يسجل الحوادث ويروي العلوم ويصف الأشخاص والأماكن التي زارها ، وقد جمع كل ذلك في كتابه : «فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته» .

رحلة ابن مسائب : هو محمد بن مسائب التلمساني وقد كانت رحلته في القرن الثاني عشر ، وما يميز هذه الرحلة أنها كانت نظما من الشعر الملحون على خلاف الرحلات المذكورة سابقا والتي اعتمدت على النثر ، فقد نظم قصيدة قص فيها رحلته من تلمسان إلى مكة المكرمة عبر مدن وقرى الجزائر من غربها إلى شرقها وقد بدأ رحلته بهذا الطالع : يا الورشان أقصد طيبة وسلم على الساكن فيها

الحسين الورتلاني ورحلته :

مولده ونشأته وتكوينه :

ترجم له مصنف كتاب نزهة الأنظار عبد القادر بن محمد الصغير بأنه «... سيدي الحسين بن محمد السعيد الشريف الورتلاني ،.... ولد

والاستزادة من العلوم الفقهية واللغوية¹⁸.

سميت هذه الرحلة بـ «نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار» والمعروفة اختصاراً «بالرحلة الوثلانية»، والتي لم يتم نشرها إلا سنة 1908م من طرف محمد بن شنب، تضمن هذا المؤلف كموضوع رحلة الشيخ الحسين بن محمد الورثلاني من مسقط رأسه إلى مكة المكرمة قاصدا الحج سنة 1766م.

وقد ذكر في الدافع للقيام بهذه الرحلة في المقدمة مايلي: «... وبعد فإني لما تعلق قلبي بتلك الرسوم والآثار والرباع والقفار والديار والمعاطن والمياه والبساتين والأرياف والقرى والمزارع والأمصار، والعلماء والفضلاء والنجباء والأدباء من كل مكان من الفقهاء والمحدثين والمفسرين الأخيار، والأشياخ العارفين والأخوان والمحبين المحبوبين من المجاذيب المقربين والأبرار، من المشرق إلى المغرب سيما أهل الصحو والمحو إذ ليس لهم من غير الله فرار، أنشأت رحلة عظيمة يستعظمها البادي، ويستحسنها الشادي، فإنها تزهو بمحاسنها عن كثير من كتب الأخبار مبينا فيها بعض الأحكام الغريبة والحكايات المستحسنة والغرائب العجيبة وبعض الأحكام الشرعية مع ما فيها من التصوف مما فتح بها علي أو منقولاً من الكتب المعتبرة...»²²

وكانت رحلته نحو الحج التي كتب فيها هذا المؤلف في عام تسعة وسبعين ومائة وألف وهي حسب خط رحلته ذهاباً كالتالي: مجانة، زمورة، بسكرة، سيدي عقبة، زليتن، مصراتة، بلاد سرت، برقة، الإسكندرية والقاهرة، المدينة ومكة²³.

تعتبر هذه الرحلة الوحيدة تقريبا التي نشرت كاملة في هذه الفترة، ولا شك أن ذلك يعود لأنه

انتقل إلى تونس ودرس بالزيتونة، أما بمصر فقد أخذ العلم عن خيرة علمائها في ذلك العصر ومنهم: «الصعيدى والحفناوى والجهري والنراوى والعفيفى والسيد البليدى والملوى والصباغ والعمرسى و خليل الأزهرى وعمر الطحاوى والزياتى والإشبلى وأبى القاسم الربيعى والهاشمى وابن شعيب الكردى والفيومى وغيرهم¹⁹.

أدى فريضة الحج ثلاث مرات؛ الأولى صحبة والده وهو ابن 18 سنة (1153هـ/1740م)، الثانية عندما بلغ 41 سنة (1166هـ/1752م) والثالثة استغرقت ثلاث سنوات (من سنة 1179 إلى 1181هـ)، وقد حرص فيها على مقابلة علماء عصره والأخذ منهم سواء بالحجاز أو بالقاهرة²⁰.

وقد أتاحت له هذه الرحلات أن يوسع ثقافته ومداركه ويحصل على زاد ثقافي واسع، كما درس بتونس وأخذ عنه عدد من الطلبة وتجاوز مع العلماء والفقهاء.

وقد ألف الورثلاني عدة مؤلفات في مختلف العلوم، كالفقه والحديث والتصوف والنحو ضاع أكثرها وأشهر هذه الرحلات الرحلة التي سماها: «نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار» المعروفة بالرحلة الورثلانية.

يعتبر الورثلاني من أهم الشخصيات العلمية في عصره، خاصة من خلال مؤلفه «الرحلة» الذي لا يستغنى عنه حسب كثير من المؤرخين في دراسة هذه المرحلة من تاريخ الحكم العثماني في الجزائر²¹.

أهمية الرحلة :

أملاها على أكثر من واحد من تلاميذه فحفظوها من الضياع بتعدد نسخها²⁴.

رحلته و التاريخ :

اعتنى الورثاني عناية بارزة بعلم التاريخ ، إذ انتقد عدم اهتمام أهل بلاده بالتاريخ وسخريتهم من دراسته ودارسيه ، واعتبره «من العلوم التي تزيد في فضل الإنسان وتبعده عن القبائح » ، ويظهر هذا الاهتمام بشكل أوضح من خلال مضمون رحلته كما يظهر من خلال التسمية التي أطلقها عليه : « نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار » ، وقد قام كمؤرخ بوصف دقيق للأماكن التي زارها والشخصيات التي لقيها ودون فيها ملاحظاته وشهاداته العينية المباشرة ، بالإضافة إلى معلومات وأخبار استقاها من خلال ما روي له من طرف الشخصيات التي لقيها ، وقد اعتمد أيضا في سرد مختلف الأحداث التاريخية وترجمة بعض سير الصالحين على مجموعة من المؤلفات منها :

- رحلة سيدي أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي التي استعان بها كدليل عن أخبار طريق الحج وتونس ومصر وطرابلس والجزيرة العربية ، كما اعتمد أيضا على رحلة العياشي .

- «عنوان الدراية في ذكر علماء بجاية» لصاحبه عباس أحمد بن أحمد بن محمد الغبريني وكتاب «النبذة المحتاجة في ذكر ملوك صنهاجة».

- «حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة» وكذلك كتاب «الأدلة السنية» لابن الشماخ .

الجغرافيا :

اعتنت رحلة الحسين الورثاني بالوصف

الدقيق للأماكن التي زارها ، وقد تضمنت معلومات عن جغرافية هذه المناطق بحيث وصف المدن والأمصار ، وحدد مواقعها والمسافات التي تفصل بينها وذكر خصائصها ومناخها وموادها الطبيعية كما تناول المسالك والطرق والممرات ؛ ومن هنا ساهمت هذه الرحلة في تحديد صورة الأرض أو ما يعرف حاليا بعلم الخرائط.

كما أعطتنا أيضا فوائد قيمة خاصة من خلال وصفها للظروف الصعبة التي كانت تتعرض لها قوافل الحج ومنها:

- قساوة الطقس والمناخ أحيانا .
- غياب الأمن خاصة من طرف اللصوص الذين كانوا يترصدون بالقوافل ويعتدون عليها .
- صعوبة التزود بالماء وردائه خاصة مع شدة الحرارة²⁵ .

التصوف :

عرف عن الحسين الورثاني أنه كان صوفيا كجده ووالده ، فقد كان مدرسا وشيخ زاوية الأسرة ، بل كان من العلماء البارزين الذين يدين لهم الناس بالطاعة الروحية والاحترام ، وقد غلبت على الورثاني الروح الصوفية أكثر من الروح الفقهية ، ومع ذلك فقد كان يجمع بين علوم الظاهر والباطن ، وكان يسير في مذهبه على مبادئ الطريقة الشاذلية²⁶ ، لذلك نراه من خلال الرحلة يظهر تعلقه بهذا المذهب ، وقد أسهب في الحديث عن الطرق الصوفية وذكر الأولياء الصالحين ومآثرهم وكراماتهم ، وهذا ما يدل على انتشار هذه الظاهرة في زمنه وشدة اعتقاد الكثير من العلماء فيها في ذلك العصر²⁷ .

كما يمكن للمتصفح لهذا المؤلف أن يستنتج المكانة التي كان يشغلها التصوف والطرق الصوفية

السياسة :

أما فيما يخص نظرتة لظروف السكان تحت الحكم العثماني فيبدو الورثاني غير راض ، بل ومنتقدا لهذه الظروف خاصة من خلال ملاحظاته حول علاقة السكان برموز الحكم العثماني القياد والأغوات³⁰، ومن ذلك ما دونه في مصر عن والي بولاق وظلمه للحجاج في قوله : « إن ظلم ولايتها قد وصل كل جنس من أجناس الآدميين حتى بلغ ظلمه الحاج المغربي والعلماء والطلبة والفقراء والأشياخ والصناع والتجار وسائر الناس قاطبة ولذلك ابتلاههم الله بالشقاق والفتنة فكانت مصر لمن غلب »³¹، كما يبدو مستنكرا لقلة العلم في عهد العثمانيين وشيوع الرشوة والاستيلاء على الأوقاف وانتشار الظلم .

فضلا عن إشارته إلى العلاقات السياسية والخلافات التي كانت قائمة بين الحكام العثمانيين في مختلف الأقطار خاصة بين الجزائر وتونس وليبيا ، وأيضا العلاقات الموجودة بين القبائل فيما بينها وبين الإدارة العثمانية الممثلة في موظفيها كالقياد والأغوات ، مما يشكل مادة تاريخية نفيسة للتقصي أو التحقق أو المقارنة³².

الاقتصاد :

لم يكن الورثاني تاجرا ولا مهتما بأمور المال والاقتصاد لذلك نرى اهتمامه محدودا بهذه النواحي في وصف الظروف الاقتصادية التي كانت تسود الجزائر وباقي الدول العربية التي زارها ، ومع ذلك نجد بعض الإشارات إلى هذا الموضوع ، ومن ذلك تناوله بالوصف لمستوى المعيشة وتنظيم الحياة اليومية ، ووصف الأسواق وأساليب التجارة وغيرها ، وفي مقارنة له بين الجزائر وتونس وطرابلس أشار أن الحياة الاقتصادية في البلدين الأولين أغنى وأخصب

في صدور الناس، والتي روى حولها الورثاني كثيرا من الأحداث الواقعية أحيانا ، والأسطورية التي تقترب من الخيال في أحيان أخرى ، وهي القصص التي يظهر من خلال هذه الرحلة كيف كانت عقول المغاربة تستسيغها وتتقبلها والتي تناولها الورثاني نفسه بالقبول والتصديق ، لذلك نجده قد خصص قسما كبيرا من رحلته لأخبارهم في الجزائر وغيرها ، إذ تحدث عن الخرافات والغيبات والكرامات المنسوبة إليهم ، كما تحدث عن شروط الساعة، وكتب بعض مذكراته عند قبر بعضهم تبركا به، وعزم على صيام الدهر ، كما قال إن الحمى التي أصابته في المدينة المنورة أنها هدية من الرسول صلى الله عليه وسلم إليه ، كما توجه بقلبه وروحه لزيارة قبر عبد الرحمن الأخضرى وقبر عقبة بن نافع وغيرهم من الأولياء الصالحين²⁸.

الفقه :

عرف عن الورثاني أنه كان فقيها أيضا ، إذ عرف تأليفه لعدة كتب فيه وفي باقي علوم الشريعة كالتوحيد ، لذلك كثيرا ما نراه يستطرد لذكر مسألة والخوض فيها ذاكرا أدلتها وآراء الفقهاء الآخرين فيها ، فنراه قد تناول وناقش قضية شرب القهوة وهي المسألة التي أخذت منه صفحات كثيرة ، كما تناول الدخان وسماع الموسيقى أيضا ، ونجده أيضا في مواطن أخرى يستنكر خروج المرأة متبرجة ، وقطع الميراث عنها في بعض الجهات ، وغير ذلك من العادات القبيحة في نظره والتي سماها عمل الجاهلية .

وعلى العموم فقد أظهر اهتماما بالأسانيد والكتب، والأشعار والمناظرات والآراء المذهبية والسياسية²⁹.

، بينما كانت ليبيا تعيش على ما يرد إليها من الخارج وليس فيها من المناطق الخصبة سوى جزء ضئيل وهي إشارة إلى حالة الزراعة في البلاد التي زارها .

اهتمامه بالعمران :

يبدو الورتلاني من خلال مؤلفه مولعا بالعمران كما أبدى إعجابه بهذا الجانب خاصة في مصر ، فنجد كثيرا ما يلجأ إلى المقارنة بين هذا البلد والجزائر التي وصف أهلها بإهمال العمران ، ومن ذلك وصفه لمسجد السلطان حسن بأنه :«مسجد لا ثاني له في مصر ولا في غيرها من البلاد في فخامة البناء ونباهته وارتفاعه وإحكامه واتساع حناياه وطول أعمدته الرخامية وسعة أبوابه ، كأنه جبال منحوتة تصفق الرياح في أيام الصيف بأبوابه كما تفعل في شواهد الجبال ...»³³

أما في وصف اهتمام المغاربة وخاصة الجزائريين فنراه يبيد تدمره من حالهم فيقول بعد المقارنة :«أما أهل مغربنا فلا تكاد ترى في مدائنهم مسجدا عظيما قد أحدث ، بل ولا مهديا قد جدد ، أو واهيا قد أصلح ، بل لو سقط شيء من أكبر مساجدهم فأحسن أحوالهم فيه إن كان مبنيا بالرخام أن يعاد بآجر وجص ، وإن كان محصصا أن يعاد بطين بحيث تجد المسجد كأنه مرقعة فقير هندي فيه من كل لون رقعة وإلى الله المشتكى...»³⁴

وعلى العموم يمكن القول أن هذه الرحلة قد اتصفت بما يلي :

- الالتزام بالصدق في كل ما أورده من أحداث ووقائع في رحلته .

- تحري الحقيقة التاريخية مع الإشارة إلى مصدرها .

- التحلي بالورع والتقوى .

- التزامه بأسلوب المحسنات والاقتباس من القرآن الكريم والحديث النبوي³⁵.

فهذه الرحلة إذا تكتسي أهمية بالغة سواء من حيث محتواها أو من حيث المرحلة التاريخية التي أرخت لها والتي تتميز بقلّة المصادر وشرح الآثار التي عنيت بها إذ يشير أبو القاسم سعد الله إلى أهمية هذه الرحلة بكونها «موسوعة أخبار عن جزء كبير من العالم الإسلامي في القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي فهي من المراجع التي لا غنى عنها في هذا المجال ، وقد كان تكرار حججه وإتقانه للعربية ومعرفته بعادات الشرق والغرب قد جعلته حكما منصفاً على العصر وأهله في كثير من المناسبات ، وقد يكون من المفيد للتاريخ أن نعثر على كنهاته التي كان يسجل فيها ملاحظاته أو على النسخة الأصلية المملأة من الرحلة ، فرجل كالورتلاني تضم أوراقه هاتيك الملاحظات والانطباعات والأحكام جدير بالدراسة والبحث بطريقة أكثر عمقا وشمولا مما درس به حتى الآن»³⁶.

خلاصة :

- تعد الرحلة العلمية مصدرا تاريخيا مهما من مصادر تاريخ الجزائر خاصة خلال العهد العثماني ، وهذا من خلال تناولها بالوصف الدقيق لأحوال الجزائر : السياسية ، الاقتصادية ، العلمية والثقافية وبالتالي كنزا نفيسا من المعلومات وبالتالي مصدرا لا يمكن الاستغناء عنه لفهم الواقع السياسي ، الاقتصادي ، الاجتماعي والثقافي بالنسبة للجزائر خصوصا والعالم العربي على وجه العموم .

- أسهم الجزائريون بشكل واضح في كتابة الرحلات خلال عهد الدايات ، وكانت بعض

تكتسي دراسة «الرحلة العلمية» أهمية كبيرة من عدة جوانب : منها التاريخية ، العلمية والأدبية ، وإن كانت رحلة الورثاني قد حظيت ببعض الاهتمام من المؤلفين والدارسين إلا أننا نجد أن كثيرا من

رحلاتهم نتيجة للحج (رحلات حجازية) ، وبعضها الآخر كان بغرض طلب العلم وملاقاة العلماء والفقهاء وبالتالي علمية محضة ومنهم من جمع بين العبادة وحج بيت الله الحرام ، وبين طلب العلم والاستزادة منه .

- تعتبر الرحلة الحجازية نموذجا من هذا النوع من الرحلات ، وهي تخص الرحلة إلى البقاع المقدسة بنية حج بيت الله الحرام ، غير أن كثيرا من الرحالة الجزائريين لم يكن يكفي بمجرد أداء الشعائر فقط بل كثيرا ما كان هؤلاء الرحالة يعرجون في طريق عودتهم على كثير من المراكز العلمية للقاء علمائها للاستماع إليهم أو طلب إجازات في مختلف العلوم والآداب ، ورحلة الورثاني خير نموذج لهذه الرحلات التي جمعت بين الغرضين .

- تميزت هذه المرحلة من تاريخ الوطن الإسلامي بانتشار التصوف والطرق الصوفية وهو ما نلمسه من خلال تناولنا لمختلف هذه الرحلات ، وباعتبار الورثاني صوفيا في نشأته وتكوينه نجده قد أسهب في الحديث عن الطرق الصوفية وذكر الأولياء الصالحين ومآثرهم وكراماتهم ، فهي ملاحظات رغم قيمتها العلمية والأدبية فهي لا تخلو من الذاتية .

- تعتبر رحلة الحسين الورثاني الموسومة بـ «نزهة الأنظار في علم التاريخ والأخبار» من أهم الرحلات في هذه المرحلة الزمنية ، وقد تضمنت وصفا دقيقا للمناطق التي زارها الورثاني سواء في نواحيها : الجغرافية ، السياسية ، الاجتماعية ، التاريخية والعلمية الثقافية ، إذ تعد حسب كثير من المؤرخين مما لا يستغنى عنه في دراسة هذه الحقبة من تاريخ العالم الإسلامي بشكل عام .

الهوامش

10 أبو عبد الله سيدي محمد بن عبد الكريم

الجزائري بلدا ، الشريف الحسني نزيل فاس ، أخذ عن عدد من الشيوخ مشاركة ومغاربة منهم : أبو محمد سيدي عبد القادر الفاسي ، وأبو علي اليوسي ، والشيخ سيدي سعيد قدورة شارح "السلم" في المنطق ، وهو عمدته ، وأخذ أيضا عن عن الشيخ علي الأجهوري ، والبابلي ، والفيشي ، والقشاشي ، وسيدي محمد الزرقاني ، والغنيمي ، والشنواني ، والشهاب أفندي ، توفي بفاس سنة 1102هـ ودفن بها . الكتاني ، سلوة الأنفاس ، الجزء الثالث ، ص151.

11 بوشنافي محمد ، نفسه ، ص 100.

12 خليف عبد القادر ، مرجع سابق ، ص113.

13 نويهض ، عادل معجم أعلام الجزائر ، من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر ، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الثانية 1400هـ/1980م ، ص62.

14 الورثيلاني الحسين بن محمد ، الرحلة الورثيلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار ، مكتبة الثقافة الدينية ، الطبعة الأولى ، المجلد الأول ، القاهرة ، 1429هـ/2008م ، ص7.

15 سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي ، الجزء الثاني ، 1500-1830 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط1 ، 1998 ، ص394 .

16 القاسمي عبد المنعم الحسني ، أعلام التصوف في الجزائر ، منذ البدايات إلى غاية الحرب العالمية الأولى ، دار الخليل القاسمي للنشر والتوزيع ، ط1 1427هـ ، ص144.

17 HADDAB Mustapha , ELWARTHILANI , Dictionnaire du passé de l'Algérie de la préhistoire a 1962 , DGRSDT/CRASC ,p532 .

18 هلايلي حنيفي ، أوراق في تاريخ الجزائر في

1 سعد الله أبو القاسم ، تجارب في الأدب والرحلة ، عالم المعرفة ، طبعة خاصة ، الجزائر 2011 ، ص110.

2 بوشنافي محمد ، هجرة العلماء الجزائريين إلى المغرب الأقصى وبلدان المشرق العربي خلال العهد العثماني (1520-1830م) ، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ ، العدد رقم4 ديسمبر 2009 ، ص99.

3 خليف عبد القادر ، الرحلات بين المغرب والمشرق وقيمتها التاريخية ، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ ، العدد رقم 04 ، ديسمبر 2009 ، ص109.

4 سعد الله أبو القاسم ، مرجع سابق ص205.

5 خليف عبد القادر ، مرجع سابق ، ص115.

6 خليف عبد القادر ، نفسه ، ص113.

7 قرآن كريم ، سورة التوبة ، الآية 122.

8 بوشنافي محمد ، مرجع سابق ، ص100.

9 هو أبو عبد الله سيدي محمد بن أحمد القسنطيني الشريف الحسني المعروف عند أهل بلده بالكماد ، أخذ بجبل زواوة عن أبي عبد الله سيدي محمد المقرئ وبالجزائر عن سيدي محمد بن سيدي سعيد قدورة وعن غيرهما ، قدم على فاس وتصدر للتدريس بها فأفاد وأجاد وأخذ عنه الجم الغفير من كل بلاد ، وعظم صيته لدى الرؤساء وغيرهم من أعيان دهره وأخبر عن نفسه أنه يحسن اثني عشر علما ، توفي بفاس يوم الجمعة الرابع من شهر محرم فاتح سنة 1116هـ . الكتاني أبو عبد الله محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني ، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس ، حققها ووضع فهرسها الدكتور الشريف محمد حزة بن علي الكتاني ، الجزء الثاني ، ص30.

- العهد العثماني ، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع ، عين مليلة ، ط 1 ، 2008 ، ص 216 .
- 35 حنيفي هلايلي ، مرجع سابق ، ص 218.
- 36 سعد الله أبو القاسم ، مرجع سابق ، ص 398.
- 19 الورثيلاني الحسين بن محمد ، مصدر سابق ، ص 8.
- 20 القاسمي عبد المنعم الحسني ، مرجع سابق ، ص 144.
- 21 HADDAB Mustapha , op .cit ,p532 .
- 22 الورثيلاني الحسين بن محمد ، مصدر سابق ، ص 13.
- 23 حنيفي هلايلي ، مرجع سابق ، ص 216.
- 24 سعد الله أبو القاسم ، على خطى المسلمين ، حراك في التناقض ، عالم المعرفة للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط 1 ، 2009 ، ص 40.
- 25 HADDAB Mustapha , op .cit,p532 .
- 26 سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي ، الجزء الثاني ، 1500-1830 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط 1 ، 1998 ، ص 394 .
- 27 خليفي عبد القادر ، مرجع سابق ، ص 122 .
- 28 سعد الله أبو القاسم ، مرجع سابق ، ص 397.
- 29 سعد الله أبو القاسم ، نفسه ، ص 398 .
- 30 HADDAB Mustapha , op .cit ,p534 .
- 31 حنيفي هلايلي ، مرجع سابق ، ص 226 .
- 32 HADDAB Mustapha , op .cit,p533.
- 33 الورثيلاني الحسين بن محمد ، مصدر سابق ، ص 318.
- 34 الورثيلاني الحسين بن محمد ، نفسه ، ص 319.